عن حروب لم تُغادرنا

زينب خليل

عندما قرَّر والداي مغادرة القرية في أواخر سبعينيّات القرن الماضي نحو بيروت، لم يظنّا أنّ ذلك القرار الذي كان موقَّتاً سيتحوّل إلى إقامةٍ دائمة تُشكِّل بدايةً لحياةٍ لن تُشبه ما سبقها. والداي اللّذان وُلدا وكبرا في قرية حدوديّة في أقصى الجنوب اللّبنانيّ مع فلسطين المحتلّة لم يعرفا عن بيروت الّا القليل. كانت حيفا أقرب إليهما من عاصمة بلدهما. هنا في هذه البقعة الجغرافيّة المَنسيّة من البلاد، حيث المساحات ممتدّة ومُتداخلة مع فلسطين، عمل السكّان في الزراعة. والزراعة شاقّة على ما تصف والدتي وكان لأيدي النساء فيها باع طويل. يبدأ يومهنّ قبل بزوغ الشمس وينتهي مع أعمالٍ منزليّة لا تقلّ بدورها مشقّة عن العمل الزراعيّ والاهتمام بالطيور والمواشي.

في تلك الحقبة الزمنيّة لم تكُن الكهرباء قد وصلت بعد ولا حتّى المياه توافرت في المنازل. في تماهٍ تامّ مع الطبيعة، ابتكر سكّانُ القرى طُرُقَهم لتأمين المَوارِد. كانت مياه المُتساقطات تُجمع في آبار ومياه الشرب تُحضَّر من نبعٍ في أقصى القرية. أمّا غسيل الثياب والأواني فقد خُصّصت له النساء يومَين أو ثلاثة في الأسبوع، يذهبْنَ إلى ذلك النبع حيث يُشعلْنَ موقدة حطب ويتساعدْنَ في ما بينهنّ.

كانت تلك الحياة على بساطتها ومشقّتها لتستمرّ، وربّما لم يكُن هناك من سببٍ للمغادرة إلّا لأولئك الذين يرغبون بالمغامرة واكتشاف أسلوب عَيش مختلف خلف القرى. لكنّ ظهور الكيان العبريّ في مُحاذاة القرية سيقلب حياة ويُغيِّر مصائر. فجأة دخلت مفردات الحرب إلى يوميّات السكّان وصارت هناك حدودٌ فاصلة سيُمنع الاقتراب منها والأراضي المُتداخلة لن تعود كذلك.

أكثر من ذلك، خسر كثيرون ومعهم والدي أراضي كثيرة قرّر المُحتلّ ضمّها إلى كيانه في غفلة عن الدولة اللّبنانيّة، التي لم تكُن تعِر اهتماماً إلى ما يجري عند الحدود من عمليّات قضْمٍ لأراضٍ أو قصف واعتداءات عسكريّة شبه يوميّة.

كانت هذه البلاد متروكة لمصيرها. تُخبرنا والدتي، أنّه في بداية سبعينيّات القرن الماضي، أغارت الطائرات المُعادية على منزل أحد أعمامي. على سطح المنزل كان يوجد غرفة صغيرة أشبه بالمقهى يلتقي فيها شبّان القرية للتسامر ولتمضية الوقت. استشهدَ في القصف ثلاثة شبّان وسقط عشرات الجرحى. أَرسلت الحكومة وفداً عسكريّاً لمُعايَنة الحادث. تقول والدتي كان الضابط يحمل دفتراً وقلماً لتدوين شهادات الناجين، فتصدّى له أحد قبضايات البلدة وطلب منه تأمين مقوِّمات الحماية والصمود بدلاً من إحصاء الأضرار.

في ذلك اليوم سار أهل القرية في تظاهرة إلى سراي بنت جبيل للاحتجاج على تخلّي السلطة اللّبنانيّة عن دورها في تأمين الحماية لهم.

ستتكرّر حوادث مشابهة وتتدهور الأوضاع أكثر وتتحوّل الحياة الآمنة إلى قلقٍ مستمرٍّ سيدفع السكّان إلى المغادرة شيئاً فشيئاً.

هكذا قرّر والداي ترك القرية ومعهما أنا الطفلة التي لم تكُن قد تجاوزت العامَيْن. في أحد أزقّة العاصمة ستبدأ أولى محاولات التعرُّف إلى المدينة والدخول في نسيجها الاجتماعيّ. صداقات قليلة مع «بيارتة» الحيّ ستنشأ تباعاً وستنجح في فكّ العزلة عن المُحيط. إذ لم يكُن هيِّناً على مَن عاش في بيئةٍ يعرف أهلُها بعضَهم أن يُصادق الأمكنة الجديدة وناسها. لكنْ مع مرور الأيّام ستتلاشى رهبة المدينة وستعقد العائلة معها صلحاً يُهوِّن وجعَ التهجير. كنّا نوهم أنفسَنا بأنّ الوجود هنا موقَّت بانتظار تحسُّن الأوضاع جنوباً فنعود من حيث أَتينا. وعليه سيظلّ الجنوب حاضراً في كلّ تفصيلٍ من يوميّاتنا. من اللّكنة

التي لم تتخلّ عنها والدتي يوماً ولا تزال، إلى الصفة التي ستُلازمنا طويلاً ونُعرَّف بها «العيلة الجنوبيّة». نحن لسنا «بيارتة»، لم نتجرّأ على الانتماء للمدينة على الرّغم مِن أنّ القرية لن تعود يوماً مكان إقامة لأيّ فرد من أفراد العائلة التي سيكبر عددها ويتضاعف في بيروت.

لم تتحسّن الأحوال في الجنوب وكانت الأخبار التي تَرِدُ من هناك تشي بأنّ النزوحَ ستطول سنواته ولم تكُن بيروت أفضل حالاً. فالمدينة التي كانت تنزلق بجنون في جحيم الحرب الأهليّة لم تعُد هي أيضاً مكاناً آمناً. انقسمت بيروت على نفسها والمبنى حيث نقيم كان يقع عند خطوط التَّماس الفاصلة بين البيروتَيْن. نحن في الشطر الغربيّ ووالدي يعمل في الشطر الشرقيّ. أذكر بكاء والدتي وقلقها اليوميّ مع كلّ جولةِ تقاتُلٍ خَوفاً على والدي.

ففي الثمانينيّات كان مسلسل رعب اسمه الخطف على الهويّة قد بدأ. إنْ لم تُقتَل بقذيفة أو رصاصة قنّاص قد تُخطَف عند حاجزٍ ميليشياويّ، وتتحوّل إلى واحدٍ من عداد آلاف المفقودين. كانت والدتي تقول إنّ الموت قتلاً في الحرب هو عندها أهون من مصيرٍ مُعلَّق بين يدي خاطف. لعلّها كانت تتنبّأ بما تُخفيه الأيّام لها.

لكنَّ الحياة ستستمرّ في تحايُلٍ يوميّ على الحرب. نذهب إلى المدرسة صباحاً ثمّ نَجد أنفسنا على الطريق إلى البيت، أرجلنا معلَّقة في الهواء تُسابِق سرعة القذائف. نُعيد الكرّة في اليوم التالي، فالمدرسة لم تُغلِق أبوابها. كان ذلك فسحة الحياة الوحيدة وسط الجنون.

في العام 1982 وصل الاحتلال الإسرائيليّ إلى بيروت. وقبل أن يُحكِم الإقفالَ على العاصمة سيحملنا والدي في طريق عودةٍ مُعاكِسة. سنُعيد اجتياز الطريق الساحليّ الذي عبرنا عليه يوماً هرباً من الاحتلال في القرية. رأى والدي أنّ الموت في الجنوب «أهون ألف مرّة من كلمة مجهول الهويّة، هناك على الأقلّ سنجد مَن يسأل عن مصيرنا». في العادة يخاف الناس من المصائر المجهولة.

لن تطول عودتنا إلى القرية فما إنْ بدأ الاحتلال بالانسحاب من بيروت حتّى انطلقنا إليها. خاف والدي أن يُعزَل الجنوب ونُصبح عالقين تحت نار المُحتَلّ وعُملائه.

وهكذا عُدنا إلى بيروت وأعادت والدتي ثيابنا إلى مكانها في الخزانة. لم يكُن توضيب الثياب تفصيلاً عابراً في الذاكرة. كنّا عندما نرى والدتي تُسارِع إلى سحب «الشنطة» من الخزانة وتبدأ بوضع الثياب فيها، نَعلم أنّ شيئاً ما يحدث وأنّ مَوسم نزوحٍ آخر قد حان.

في جولات الاقتتال الكثيرة التي مرّت علينا، تعلّمنا التحايُل على الموت. المذياع في المنزل لا يسكت. هو دليل والدتي لتقصّي الأخبار كي تُقرِّر إرسالنا من عدمه إلى المدرسة. عند اشتداد القصف كنّا نُحشَر في واحدة من زوايا البيت. تلك الزاوية أَجْمَعَ والداي على أنّها الأكثر أمناً لكونها بعيدة عن النوافذ الزجاجيّة أو عن الباب ولأنّها تلتصق بحائط المبنى المُجاوِر. هذه زاوية مثاليّة يُمكن أن تقينا شظايا القذائف التي كانت تنهمر كالمطر ذات شباط بارد.

حينما يقترب صوت القصف ويهتزّ المبنى فنخاله سيقع على رؤوسنا، كنا نترك زاويتنا الآمنة إلى «بيت الدَّرج» أو إلى الملجأ. والأخير منحه الجيران هذا التوصيف على الرّغم مِن أنّه لم يكُن مُهيَّئاً ليكون كذلك. كان مستودعاً تتوزّع فيه آلاتٌ ضخمة لا يُمكن أن تتزحزح من مكانها. فهو لم يكُن مُجهَّزاً لاستقبال هذا العدد من الأرواح الباحثة عن فُرصتها للنجاة. كان الهاربون من الموت يتكدّسون بين تلك الكتل الحديديّة الهائلة، تجلس كلّ عائلة على بساط أو غطاء قديم وتُضيء شمعة أمامها حتّى يُضاء المكان. من وقتٍ إلى آخر، كان يخرج رجلٌ من الملجأ لتفقُّد آثار القصف ثمّ يعود ليُخبر عن مُشاهداته.

يوم، يومان وسيتعب المُقاتلون ويعلنون عن استراحة تسمح لنا بالخروج من جوف المبنى. مع أولى ساعاتِ فجرٍ هادئٍ بحذر، سيحمل الكثير من جيراننا أمتعتهم ويتركون الحيّ بحثاً عن مكانٍ أكثر أمناً. نحن هذه المرّة «لا مكان نذهب إليه» يقول والدي لجارنا البيروتيّ، سأله إن كنّا سنقصد الجنوب هرباً من الاقتتال المتفلِّت في بيروت.

بين نارَي الاحتلال في الجنوب وجنون الحرب في بيروت، فضّل والدي البقاء. كانت أخبار الجنوب مُقلقة ما جعلته يُحجم عن الذهاب، وخصوصاً أنّ لديه عملاً مياوماً. وكلّ يوم ينقطع فيه عن العمل يعني انقطاع لقمة العَيش. لكنّ والدي لم يكُن يعلم أنّ الحرب قد وصلت إلى باب منزله، هو الذي لم يحمل السلاح يوماً. كان يعتقد أنّه وَجَدَ الأمان في زاوية منزله وداخل حيِّه البيروتيّ «المُنزوي».

ذات مساءٍ ماطِر من مساءات شباط، بينما كان والدي وبعض الجيران يتفقّدون الحيّ بعد سماعِ دويٍّ قويّ، سقطت قذيفة على حيِّنا. كان عصفها هائلاً تطاير معه الزجاج والحجارة من كلّ صوب، وغطّى علينا غبار كثيف أعاقنا عن التحرّك خطوة واحدة.

انعدمت الرؤية أمامنا وعلق كلٌّ منّا في عتمة مكانه. بدأت والدتي بمُناداتنا واحداً واحداً. أتذكّر رعب صريخها وأنفاس صمتها وهي تتنظر أن تسمع صوتَ مَن نادت اسمه أو اسمها. أخال تلك الثواني القليلة سنوات انتظار ينقطع فيها قلبُها عن الخفقان قبل أن تعود الحياة إليه عند سماع الإجابة. بعد أن اطمأنّت إلى نجاتنا طلبت منّا الاقتراب منها، لحقنا الصوت لأنّ الرؤية لم تكُن بعد مُمكنة. أمسكتُ طرف ثوبها وفَعَلَ كلٌّ واحد منّا الشيء نفسه مع مَن يسير أمامه. كنّا أربعة أطفال، أكبرهم أنا لم أتجاوز الثامنة من عمري. سرنا خلفها إلى خارج البيت الذي يقع في الطابق الأرضي من المبنى. ما إن تجاوزنا عتبة الدار حتّى بدأت مشاهد الموت بملاقاتنا. كانت ريما، ابنة جيراننا أوّل لقاء لي مع الموت. ربّما في تلك اللّحظة، لم أعرف أنّي عبرتُ أمام جثة لكنّ الدماء الكثيرة التي خرجت من رأسها أخافتني كثيراً والأطفال عادة يهابون منظر الدماء ويتوجَّسون منه خطراً. أمرتني والدتي بأن أُتابع سيري وألّا أنظر إليها وأن أركض بسرعة نحو بيت الدرج. المسافة من باب منزلنا إلى هناك لا تتعدّى الخمسة أمتار. لكنّها في تلك اللّيلة الصعبة كانت مساراً شاقّاً أعبره ولعلّي ما زلتُ إلى اليوم عالقة في تلك الأمتار القليلة. مع كلّ خطوة كنتُ أسمع وقع أقدامي على الزجاج المحطَّم، ثمّ تعثّرت بعائق. لم يكُن زجاجاً ولا إسمَنْتاً، كان شيئاً طريّاً ولكن حينها لم أكُن لأُمَيِّز جثث الموتى.

لم تُرافقنا أمّي إلى بيت الدَّرج بل اتَّجهت مسرعة صوب مدخل المبنى ومنه إلى الشارع الصغير. كانت تبحث عن والدي ووجدته. كانت سيّارات الإسعاف قد بدأت بالوصول. علمَتْ أمّي حينها أنّ والدي قُتل «سحبته بيدي، لم يتحرّك» قالت لجارتنا التي جاءت لمُساندتها. بقيت تردِّد تلك العبارة في انتظار أن يأتينا خبر من المستشفى. لم تستطع أمّي مرافقة سيّارة الإسعاف لأنّها لم تستطع أن تتركنا لوحدنا في المنزل. لكنْ كان على أحدٍ ما أن يُعلم العائلة بما حصل. لنا خال يُقيم في بيروت. طلبت والدتي من جارنا أن يذهب إليه وطلبت منّي مرافقته لأدلّه على الطريق.

كان ليل بيروت ماطراً وبارداً. أمسك الرجلُ بيدي ومشينا في ظلام دامس لم يُضِئه إلّا أضواء القذائف المتفجِّرة.. لا أحدَ يسير في الطريق، فقط نحن وسيّارة إسعاف كانت سرعتها تُسابق الزمن لعلّها تتمكّن من إنقاذ أرواحٍ التهمتها الحرب. التقينا بمسلّحين عبروا أمامنا، لم يوقفوا جارنا لسؤاله عن خروجه في ذلك الوقت. لم أشعر بالخوف منهم قدر

خوفي من أن أتوه عن منزل خالي وأن لا أنجح في الوصول. كنتُ أتوقّف مرّة بعد مرّة عن السير كي أتمكّن من تذكُّر الطريق نحو وجهتنا الصحيحة. بعد محاولاتٍ عدّة تمكّنتُ من إيصال جارنا إلى بيت خالي. لا أعرف ماذا أخبرته عندما سألني مُستغرباً عن عدم مُرافقة والدي. أعتقد أنّ جارنا أكمل له سرد الفاجعة. رجعتُ إلى البيت وكانت أمّي قد استسلمت للبكاء لأنّها عرفت أنّ سنوات من الحزن تنتظرها.

ساعات ووجدنا أنفسنا مرّة جديدة على الطريق الساحليّ مع جثّة والدي الذي جاء بيروت بحثاً عن أمان وعاد منها قتيلاً.

يصعب فهم الموت في عمر الثامنة. مهما أُخبرت عنه لن يتمكّن عقلك الصغير مِن استيعاب معناه. ما ستكتشفه لاحقاً أنّ حياتك لم تعُد تُشبه ما كانت عليه وأنّك لم تتمكّن من رؤية والدك مجدَّداً حينما تسأل مراراً وتكراراً عن عودته. لم تكُن والدتي الغارقة في حزنٍ دائم لتُجيبَ عن أسئلتنا. قالت القريبات والجارات إنّه أصبح في السماء. لذا لطالما نظرتُ نحو الأعلى علّي أراه أو لعلّه يمدّ يده ملوِّحاً. وكنتُ أسأل نفسي كثيراً لما سيصعد للعيش «فوق» ويتركنا هنا؟ لماذا لم يأخذنا معه؟ عاشت معي تلك الأسئلة لأنّي لم أجرؤ على سؤال والدتي التي أَخذها الحزن منّا. لاحقاً اعترفَتْ لي أنّها حاولت إنهاء حياتها أكثر من مرّة ولم تتجرّأ على اتِّخاذ الخطوة الأخيرة. كانت تصعد إلى سطح منزل والدَيها في القرية وتقترب من الحافّة كي تُلقي بنفسِها إلى الأسفل. لكنْ في كلّ مرّة كانت تشعر بيَدٍ تشدّها إلى الخلف أو تسمع صوتاً يُذكِّرها بأنّ لديها أربعة أطفال وأنّ الخامس في بطنها.

في القرية سنُقيم أشهراً قبل أن تُقرِّر والدتي العودة بنا إلى بيروت. أُجبرت على العودة خوفاً مِن أن يعمد صاحب المنزل على طردنا منه بسبب تأخُّرنا عن دفع بدلات الإيجار أو أن يقوم المسلَّحون باحتلاله. احتلال المنازل الخالية من سكّانها كان شائعاً في بيروت في ذلك الزمن.

عادت والدتي إلى بيروت ومعها نصف العائلة. أمّا نصفها الآخر، أنا وأخي فبقينا في القرية. هكذا ارتأى الجميع أنّه الحلّ الأفضل، فوالدتي لن تتمكّن لوحدها من تدبير أمورنا جميعاً. في اليوم الذي تَرَكَتْنا هربتُ إلى سطح البيت وبكيتُ كثيراً. كنتُ أبكي وأنظر إلى السماء لعلّ والدي يطلّ منها ويخبرني عن سبب غيابه وعن سبب رحيلها.

ستمرّ أشهر طويلة قبل أن يلتئم شمل العائلة. عدتُ أخي وأنا إلى بيروت لنجدَ أنّ طفلاً صغيراً قد دخل حياتنا. كان فرحاً وسط الحزن الكبير. فمظاهر الحداد طبعت كلّ طفولتنا، لم تخفِ أمّي حزنها ولم تتخلَّ عن ارتداء السواد لسنوات وسنوات. لم نكُن نحتفل بالأعياد ولم نكُن نُشارك في أيّ مناسبة اجتماعيّة سعيدة، حتّى جهاز التلفزيون نُقل من مكانه في وسط الغرفة ليستقرّ سنوات في قعر الخزانة. كنّا إذا رغبنا في مشاهدة التلفزيون نتحايل للذهاب إلى منزل خالي أو جيراننا لعلّنا نحظى بساعة مشاهدة.

الحزن والخوف من خساراتٍ إضافيّة قد تحملها لنا الحرب جعلنا نعيش لسنوات في عزلة تامّة عن كلّ أسباب الفرح. ولأنّي كنتُ الأكبر سنّاً بين إخوتي وأخواتي فقد نلتُ النصيبَ الأكبر من تلك العزلة ومن مقاسمة والدتي في تحمُّل أعباء الحياة. وهي أعباء تصبح أشدَّ ثقلاً في زمن الحرب. صحيح أنّ الحرب جعلتني أشدَّ صلابةً حينما دفعتني باكراً لأواجه وحيدة تحدِّيات الحياة. لكن في الواقع، لم أكُن أملك ترفَ الاختيار كي أقرِّر إنْ كنتُ أريد ذلك. حينما كنتُ أشعر بالخوف أو القلق كنتُ أخفِّف عنّي بالقول إنّ كلّ ما سيأتي لن يكون أسوأ ممّا حصل.

مع تقدُّم السنوات صرتُ أجد بعض الفرح في المدرسة. لكنّ ارتيادها أيضاً لم يكُن ثابتاً بل كان مسلَّحو المليشيّات المُتحاربة يتحكّمون في تحديد روزنامة الحضور والتعطيل. يهدأ الاقتتال فنعود إلى مقاعدنا، يشتعل فنلزم منازلنا. وهكذا كان التعليم يسير في لعبة كرٍّ وفرٍّ مع المُتقاتلين ويحدث أن ترجع يوماً إلى مدرستكَ فتكتشف أنّ رفيقةً لكَ لن تعود. لا تحمل الحروب إلّا الفقدان. وذاكرة جيلنا نحن الذين ولدنا وكبرنا فيها لا تتوقّف عن إحصاء الخسارات.

في يوم دراسيٍّ سُرق من يوميّات الحرب، سيأتي الأستاذ محمّد ليفتح لنا باب غرفة معتمة لطالما سُردَت الحكايات حولها. كانت صديقتي تقول إنّ جِنّاً يسكن فيها وأخرى تتحدّث عن أفعى تنام خلف الخزانة الكبيرة. عندما هَمَّ أستاذنا بفتح الباب، حبسنا جميعاً الأنفس بانتظار أن يقفز ذلك الشيء، جنّاً كان أم أفعى.

لكنّ شيئاً من ذلك لن يحدث وستقفز أمام أعيننا رفوف مُمتلئة بالكُتب. كانت مكتبة ولكنّ أحداً لم يفتح بابها يوماً، ربّما لأنّ المُطالَعة كانت تَرَفاً في زمنٍ كنّا نسرق منه ساعة لتعلُّم قراءة الحَرْف وكِتابته.

صارت مكتبةُ المدرسة مكاني المفضَّل وعالَمي الساحر الذي يأخذني إلى حيث لا يستطيع واقعي تخيُّله. كان يحقّ لنا استعارة كتاب في الأسبوع ولكنّ ذلك لم يكُن ليُشبِعَ نَهمي، فصرتُ ألجأ إلى صديقاتي اللّواتي يَجدن في المُطالعة قصاصاً فأستعير ما بحوزتهنّ. أكثر من ذلك صرتُ أحدِّد لهنّ مسبقاً ما يخترنَ، فالكتاب سيحطّ في آخر المطاف بين يديَّ.

لكنّ تلك البهجة لن تستمرَّ طويلاً، ستشتعل جولةُ حربٍ جديدة وستغلق المدرسة أبوابها. بعد أن غادر كلُّ جيراننا في المبنى وصار حيُّنا موحشاً لم يتركه إلّا مَن لم يجد مكاناً يهرب إليه، شعرتْ والدتي بالخوف. فقرَّرت أن نلجأ إلى القرية. كنّا قد انقطعنا عن زيارتها لسنواتٍ لنَجِدَ أنفسَنا مجدَّداً في سيّارة أجرة جاءت لنقلنا إلى الجنوب. خرجنا من بيروت على وقع قصفٍ عنيف اضطرّ معه السائق للقيادة بسرعة جنونيّة حتّى يصل إلى الطريق السّاحليّ. ما إن أصبحت بيروت خلفنا حتّى استعدنا أنفاسَنا. لكنّ القلق سيعود مع كلّ حاجز عسكريّ سيُطالِعنا على الطريق. أمامنا حواجز عسكريّة عدّة قبل أن نصل نقطة المعبر. المعبر هو الذي يفصل القرى المحتلّة عن باقي الجنوب. انتظرنا طويلاً في السيّارة قبل أن تُفتح لنا البوّابة الحديديّة. طُلِب منّا أن نُفرِغ أرضاً كلّ محتويات حقائبنا وأن نتوجَّه إلى غرفة التحقيق. كانت والدتي قد أوصتنا بأن لا نُجيب عن أسئلة المحقِّق بأكثر من «ما بعرف»، أو أن نلتزم الصمت. في الغرفة، كانت تجلس سيّدة خلف مكتب وأمامها مجموعة من الأوراق، طَلبت بطاقة الهويّة وبَدأت بطرْح أسئلةٍ كثيرة عن سكننا في بيروت ومعارفنا ويوميّاتنا. بين إجابةٍ وأخرى كانت المُحقِّقة تُباغت والدتي بسؤالٍ عن فلان أو فلان من أبناء قريتنا المعروفين بنشاطهم السياسيّ المُناهض للاحتلال. لم تَجِد المُحقِّقة في والدتي صَيداً «مُخابراتيّاً» لذا بعد حوالى الساعة، سلّمتنا تصريحاً يسمح لنا بالعبور نحو «الشريط المُحتلّ».

دخلنا القرية بعد سنواتٍ من الغياب. لم تكُن تُشبه تلك التي بقيت عالقة في ذاكرتنا يوم وصلناها لدفنِ والدي قبل أكثر من ستّ سنوات. بَدَتْ مُغلَقة بشدّة على حالها وقد تَراجَعَ عددُ قاطنيها وغادرها معظم الأقارب والمَعارف. كنتُ قد بلغتُ الثانية عشرة، لم أَجِد من أتسلّى برفقته خلال إقامتي الموقَّتة في القرية. أمضينا معظم وقتنا في البيت، لا نخرج إلّا لزيارة ضريح والدي أو مَن بقي من الأقارب. كانت والدتي تخشى عملاء

الاحتلال، كما تخشى تسلُّل البضائع الإسرائيليّة إلى مائدتنا. كانت لائحة المحاذير التي أوصتنا بها تطول لحدِّ أصابتنا بالضّيق والتملْمُل. كنّا عندما نشتري السكاكر والعصائر نُطيل النظر إلى الكتابة على غلافها. نتذكَّر كلامَ والدتي عن العبريّة ذات الأحرف الغريبة التي لا تُشبِه الأحرف العربيّة ولا الأجنبيّة التي تعرَّفنا إليها في المدرسة.

على خلاف الفرحة التي رافقتنا عند دخولنا القرية، تحوّلَ مكوثنا فيها إلى إقامةٍ جبريّة. صرنا نُحصي الأيّام لنعود إلى بيروت. لذا ما إن هدأت الأوضاع الأمنيّة وبدا أنّ الحرب الأهليّة قد شارفت على نهايتها، حتّى انطلقنا في طريقِ العودة. كانت تلك الزيارة الأخيرة إلى القرية.

بعدها ستستقرّ أحوالنا في بيروت مع توقُّف أصوات القذائف. وستُصبح المدينة مكاننا النهائيّ الذي منه سننطلق نحو خياراتِ الحياة. لكنّ انقطاعنا القسريّ عن الجنوب، لم يُحوِّله إلى تفصيلٍ عابر. ظلّت أخباره تطغى على كلّ اهتماماتنا. الحروب هناك لم تتوقّف يوميّاتها. سنعيشها ولو عن بُعد، ولاسيّما خلال عدوانَي تمّوز (93) ونيسان (96). صحيح أنّنا لم نَترك منزلنا خلالهما لأنّ الحرب بقيت بعيدة عن بيروت، إلّا أنّ أخبارها أعادت إحياء كلّ الذكريات الأليمة. من سخرية القدر، مثَّلَ هذان العدوانان دَوراً مباشراً في حَثّي على اختيار الصحافة اختصاصاً جامعيّاً. كنتُ ساخطة وكان لديّ رغبة شديدة في الكتابة والتعبير عمّا يحدث. وهكذا حصل. دخلتُ كليّة الإعلام في الجامعة اللّبنانيّة مع انتهاء عدوان نيسان الذي شنّه الاحتلال الإسرائيليّ على لبنان عام ستّة وتسعين وتخرّجتُ مع انسحابه من الجنوب في العام ألفَين. بين تاريخَيْن حاسمَيْن على روزنامة الأحداث في لبنان، تشكّلت حياتي المهنيّة التي اتّكأت في جوانب عدّة على علاقتي مع الحرب. قد تكون حرب الألفَين وستّة، الوحيدة التي لم أَعشْها. كنتُ قد غادرتُ إلى فرنسا لإتمام الدِّراسات العليا حينما وقعَتْ. تقول والدتي إنّي «زمطْتُ منها». هل فعلاً «زمطتُ»؟ ربّما. أقول ذلك في كلّ مرّة، أقود سيّارتي برفقة أولادي الأربعة إلى قريتي الحدوديّة. وعندما أطلّ من شرفة منزلنا المُقابل لفلسطين المحتلّة، أقول لنفسي «لقد نجوتُ».